المدخـل

المديح مفهومه وتطوره

1- المديح : أ- لغــة

ب- اصطلاحا

2- شعر المديح في العصر الجاهلي .

3 - شعر المديح في صدر الإسلام.

4- شعر المديح في العصر الأموي .

5- شعر المديح في العصر العباسي .

6- شعر المديح في الأندلس .

1- المديــح :

أ- لغـة :

المديح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء، يقال مدحته مِدْحَة واحدة ومدحه يمدحه مدحا ومدحة، هذا قول بعضهم، والصحيح أن المَدْحَ المصدر، والمِدْحَةَ الاسم، والجمع مِدَحٌ وهو المديح والجمع المدائح والأماديح[1] .

ب- اصطلاحـا :

المديح «هو حسن الثناء وتعداد لجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار التقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا، وعرفوا بمثل هاتيك الشمائل »[2] .

ومن الصعب تحديد وضبط تعريف مانع وجامع لمصطلح « المديح »، كما يصعب في الوقت نفسه التعرف على تاريخ معين لاستخدامه كفن شعري له خصائصه وموضوعاته، وكل ما في الأمر، أن المديح غرض من أغراض الشعر التقليدية كالفخر، والرثاء، وهي موضوعات تكاد تتفق في مقاصدها ومراميها.

فالفخر لا يخرج عن كونه مدح المفتخر بنفسه، والإشادة بمآثر أهله، ومكانة قومه، والرثاء قريب من المديح، ولكنه يختص بالأموات، فيعدد مآثرهم، ويبرز أفضالهم في قالب من الحزن والأسى، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفنون الثلاثة هي من أصول الشعر العربي في أزمنته المتعاقبة، لا يكاد يختلف فن منها عن غيره في عصر من العصور، إلا ما تعلق بالصياغة، وخصوبة الخيال وحسن التصرف بين شاعر وآخر[3] .

وقد قام المديح بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية؛ إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك، وسياسة الوزراء، وشجاعة القواد، وثقافة العلماء، فأوضح بذلك بعض الخفايا وكشف عن بعض الزوايا، وأضاف إلى التاريخ

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (مدح)، دار صادر، بيروت، مج6، ط1، 1997، ص : 27 .
(2) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط1، 1962، ص : 5 .
(3) مصطفى الشكعة، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مكتبة الأنجلو مصرية، 1958، ص : 133 .

– صادقا أو كاذبا – ما لم يذكره في الكثير من الأحيان، فساعد على إبراز الكثير من الشخصيات، ورفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام، وأغفل آخرين كانوا أحق بالذكر وأجدر بالشهرة[1].

أما إذا حاولنا تحديد تاريخ دقيق لاستعمال المصطلح « المديح » فإننا لا نصل إلى ما يشفي الغليل، إلا إذا عدنا إلى طبيعة الإنسان كإنسان « فمنذ فجر التاريخ أحسّ الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان، وشعر باختلاف المواهب، والقيم بين النّاس، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع، لذلك سعى إلى رضا من هم فوقه، وتجمل حيالهم بالقول، فوقف منهم موقف الاحترام والتودد، فكانت أقواله تعبر عن المديح »[2] .

بهذا نجد أن المديح « من أقدم الفنون الأدبية، عرفه البدائيون يوم رفعوا صلواتهم إلى أربابهم، وأثنوا على أصنامهم، وتغنوا بأمجاد آلهتهم، وعرفوه يوم وضعوا أنفسهم تحت وصاية زعمائهم وأبطالهم، وامتدحوا هؤلاء الأبطال، وتحدثوا عن أعمالهم الكبرى »[3] .

(1) سامي الدهان، المديح، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1980، ص : 5 .

(2) م.ن، ص : 7 .
(3) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص : 7 .

2- شعر المديح في العصر الجاهلي :

لقد كـان المـديح فـي العصـر الجـاهلي واحـدا مـن الفنـون الشـعرية البـارزة، وكـان ذا ألـوان مختلفة ومتعددة، تتراوح بين مدح الشاعر لزعماء قبيلتـه، وفرسـانها وسمحائها، ومدحـه لمن يحسن إليـه سواء أمده بمـال أو سـاعده فـي مهمـة، أو أكرمـه وغير ذلك من مجموع الفضـائل المتعارف عليها آنذاك .

ومن مدائح الجاهلية ما نظمه أصحابه في تمجيد الأحلاف، إذ كانت القبائل تحرص علـى إبقـاء التحالف بينها، وذلك دعما لقوتها، وتهديدا لأعدائها، وقد يوجـه المديح إلـى ملك من الملوك أو زعيم من الزعماء، رجاء اكتسابه إلى جانـب قبيلـة الشـاعر، أو رجـاء التقرب منـه لجعلـه عونـا في الأوقات الصعبة[1] .

فعلى ضوء التقاليد القبلية وحرص هذه التقاليد علـى إيجـاد نمط سلوكي تحـدده مجموعـة مـن القيم يتصرف في حدودها كل فرد، وهي تقاليد ذات صـبغة محافظـة ونزعـة مثاليـة، كـان علـى الشـاعر الـذي هـو فـي الوقـت ذاتـه المتحـدث بلسـان القبيلـة والمـدافع عنهـا والمتغنـي بأمجادهـا وبطولاتها، المحافظة أولا على ثبات هذه التقاليد، وثانيا التغني بها والثناء عليها وتعداد جوانـب مظاهرها في قبيلته، أي بمعنى محدد مدح هذه القيم[2] .

إذا لقد جاء المديح بشكل عام في العصر الجاهلي « موجهـا إلـى القيم أكثر منـه إلـى الأفراد حتى حينما كان يقصد الشاعر بمدحته ملكا من الملوك العرب فـي الجاهليـة، مثل الشـعر الـذي كان يوجه إلى ملوك الحيرة وإلى ملوك الغساسنة عند شعراء أمثال عمرو بـن قميئـة وعبيد بـن الأبرص والأعشى وغيرهم، حتى فـي هذا الشـعر لـم يكن المقصـود مـن المـديح هنـا هـو فرديـة الفرد، وإنما كان المقصود ما يمثله هذا الفرد من مكانة اجتماعية وقيمة أخلاقية »[3] .

نفهم من القول السـابق أن الشـاعر العربـي كـان يندفع إلـى المديح إعجابـا بالخلـق الحميـد، والـرأي السـديد، والشـجاعة الفائقـة، والكـرم الواسـع وهـذه القيم المثاليـة تشـكل الإطـار الطبيعـي الأول لفن المديح، حيث كان دور الشاعر هو العمل على ترسيخ هذه القيم

(1) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص : 51 .
(2) أيمن زكي العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000، ص : 17.
(3) م.ن، ص : 19 .

في النفوس والعمل على المحافظة عليها في حدود قبيلته، فلم يكن المقصود بالمديح هنا كسب المال أو المنفعة الفردية، كما يصير إليه الحال عند ما يتخصص شعراء في هذا الفن، وحينما يتجه المديح إلى الأفراد طلبا للنوال، وفي هذا يقول ابن رشيق « وكانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها »[1] .

ولقد ظلت وظيفة الشعر في العصر الجاهلي وظيفة أخلاقية تربوية، تهدف مع الإمتاع إلى الإفادة، كونها كانت تنبع من إحساس الشاعر بمسؤوليته تجاه قضايا المجتمع الذي ينتمي إليه وتقاليده. ظل الشعر يسير في هذا الاتجاه « حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر، وكان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان، فسقطت منزلته، وتكسب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك »[2] .

إذا فقد تحولت وظيفة هذا الفن وأصبح موجها إلى التكسب، وربما كانت أسباب اقتصادية واجتماعية تتعلق بهؤلاء الشعراء دفعتهم أن يسلكوا هذا المسلك المغاير للشكل العام الذي كان سائدا، ولكن هذا لم يمنع من أن قصيدة المديح حافظت على بريقها وجمالها ووظيفتها عند شعراء تعففوا واعتبروا التكسب بالشعر وصمة عار تلحق الشاعر حتى بعد مماته[3] .

3- شعر المديح في صدر الإسلام :

ولمّا جاء الإسلام غيّر الشخصية الإنسانية تغييرا جذريا في معتقداتها وفي عاداتها، وفي نظرتها إلى الحياة بصفة عامة، فلقد ذابت القبيلة في الإسلام كنظام اجتماعي سياسي وديني أيضا، ولم يعد وجود الفرد رهنا بوجود قبيلته أو وقفا عليها كما كان في العصر الجاهلي، فقد اتسع مدى الروابط التي تشد الإنسان إلى أخيه الإنسان، بحيث إن الأخوة لم تعد تقتصر على أبناء القبيلة، بل تجاوزتهم إلى كل من يدين بالإسلام، كذلك نجد أن ذاتية

(1) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح : عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، ج1، 2001، ص : 69 .
(2) م.ن، ص.ن .
(3) أيمن زكي العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، ص : 21 .

الفرد قد نمت واتسع نطاقها، واستقلت في كثير من شؤونها تبعا لما حمله الإسلام من تشريع مدني يساعد على بروز الشخصية الفردية، ضمن متسع من حياة الجماعة ويجعل الفرد وجها لوجه أمام تبعات خاصة به ناشئة عن سلوكه كفرد حر مستقل[1] .

ومن ثم كان لا بد أن يمتد هذا التغيير إلى فن المديح، فطرأ تحول في النظرة إلى الرجولة والشهامة، وتحول في غايات الأشخاص وأهدافهم، وفي مواقف الشعراء من قبائلهم ومن ممدوحيهم، والفضائل التي كان الجاهلي يتغنى بها نحو شرب الخمر، والمقامرة والإقبال على الشهوات أصبحت في نظر الإسلام رذائل ينبغي للمسلم أن يتحاشاها .

ولا شك أن الدين الإسلامي جاء بفضائل لم تعرف من ذي قبل، فكانت هذه الفضائل أول تطور موضوعي يدخل شعر المديح منذ القرن الأول الهجري[2]، وقد برز شعراء تغنوا بهذه الفضائل ودعوا إليها، وهم شعراء الرسول - صلّى الله عليه وسلم – نحو حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهم، وكان دور هؤلاء الشعراء يتمثل في الإشادة بالقيم الإسلامية، والإعلاء من شأنها من جهة والتصدّي للكفار وهجماتهم اللاّذعة من جهة أخرى

ويمكن تلخيص أهم المعاني المستمدة من الدين الإسلامي في الاعتزاز بنصرة الدين والدعوة إلى اعتناق مبادئه ومحاربة الشرك والمشركين، ولعلّ أبرزها ما اعتنى به الشعراء في الفترة الإسلامية؛ هو الإشادة بالفضائل المعنوية أكثر من الفضائل الحسية، وإذا صادفنا من الشعراء من يشيد بالفضائل الجسمية فإنه لم يقصدها لذاتها؛ بل يقرنها غالبا بالمعاني الدينية « فإطلاق الوجه دليل التقي والورع، وصفاء السريرة، وقوة أسر العينين دليل الذكاء والفطنة، والبسطة في الجسم يقصد بها المهابة وما إلى ذلك ... »[3] .

ومع ذلك فقد خفت صيت هذا الفن، واعتراه بعض الفتور خلال الفترة الإسلامية نظرا لكونه فن يشيد بمظاهر الأبهة والكبرياء، والتواضع فالنبي – صلّى الله عليه وسلم – لا يحب أن يمدح كما تمدح الملوك، وعلى نفس هديه سار الخلفاء الراشدون من بعده، لأجل ذلك لم

(1) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص : 110 .
(2) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 1981، ص : 397 .
(3) م.ن، ص.ن .

تظهر خلال الفترة الإسلامية أشعار المديح التي تستحق الذكر، ما عدا تلك التي قيلت في

مدح الرسول ودينه[1] .

4- شعر المديح في العصر الأموي :

أما إذا انتقلنا إلى العصر الأموي فإننا نجد أن الخلاف القائم حول الخلافة كان من أهم الأسباب، التي أدت إلى نشوء الأحزاب الدينية والسياسية في هذه الفترة[2] .

فكان لكل حزب شاعر أو مجموعة من الشعراء يدعون إلى مبادئه، ويتولون مهمة الدفاع عنه، فالحزب الأموي كان يمثله جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم وحزب الخوارج كان منهم قطري بن الفجاءة وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم، وعمرو بن الحصين، أما حزب الشيعة فأشهر شعرائه الكميت بن يزيد الأسدي، وكثير عزة، ومن حزب الزبيريين الشاعر النعمان بن هرم وعبد الله بن قيس الرقيات وحسان بن ثابت وابنه عبد الرحمن[3] .

وكما شهر الأمويون سيوفهم في الصراع الحربي الذي يدور بينهم وبين الثائرين ضدهم الخارجين عليهم، شهر شعراؤهم ألسنتهم في صراع آخر يدور في ساحة فنية أشد اتساعا، والذي يعنينا في هذه المعارك الأدبية شعر المديح الذي رافقها وسجلها .

وأول ما يلفت الانتباه في قصيدة المديح الأموية تلك الملائمة البارعة بين العناصر التقليدية الموروثة التي كان المديح القديم يعتمد عليها والعناصر الجديدة المستحدثة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروف حياتهم الجديدة التي كانوا يحيونها .

لقد وجد الشعراء بين أيديهم رصيدا ضخما من التراث القديم الذي خلفه لهم أسلافهم من شعراء العصر الجاهلي، فراحوا ينفقون منه في كثير من الإسراف مستمدين من كنوزه الثرية كثيرا من معانيهم وأساليبهم وصورهم الفنية، ولم يستطيعوا أن ينفصلوا عن هذا التراث؛ لأنه يمثل أمامهم أروع صورة وصل إليها شعرهم العربي في عصره القديم، وأرفع نموذج لهذا الذي استقرت تقاليده واكتملت مقوماته على أيدي القمم الشامخة في هذا العصر[4] .

(1) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص : 115 .
(2) م.ن، ص.ن .
(3) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص : 18 .
(4) يوسف خليف، في الشعر الأموي، دراسة في البيئات، دار غريب للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ص : 90 .

وعلى أساس هذه الملائمة بين العناصر التقليدية الموروثة والعناصر الجديدة المستحدثة، ظلّ المديح بالكرم والشجاعة والحلم والمروءة والنجدة وغير ذلك من المعاني القديمة خيوطا جاهلية تدخل في نسيج قصيدة المديح الأموية، ولكن إلى جانب هذه الخيوط الموروثة دخلت

هذا النسيج معاني إسلامية مستحدثة جددت من الصورة التقليدية للقصيدة العربية وحولتها من صورتها الكلاسيكية الخالصة إلى كلاسيكية جديدة، فأصبح الشاعر يمدح الخليفة بأنه إمام المسلمين، وأن الله اختاره لخلافتهم، وأنه نور يضيء البلاد، ويكشف عنها ظلمات الجور والضلال، وأنه يقيم في الدولة الإسلامية عمود الدين، ويقضي بين الناس بالعدل، وأنه يتصف بالصفات التي يدعو إليها من تقوى وورع وتبتل إلى الله وتمسك بكتابه وسنة رسوله ونحو ذلك من المثل والقيم الإسلامية التي أرساها الإسلام في نفوس الناس[1] .

5- شعر المديح في العصر العباسي :

وبانتقالنا إلى العصر العباسي نجد أن ما يميز هذا العصر هو تشعب الحياة، في مختلف مجالاتها الفكرية والسياسية، وأدى هذا التشعب بالضرورة إلى الاتجاه نحو التخصص، فكان من الطبعي أن ينحو شعر المديح هذا المنحى، فظهرت أنواع من المدائح يتجه بعضها إلى الملوك وبعضها الآخر إلى القواد والبعض الآخر إلى العلماء وأعيان المجتمع وغيرهم ...

أما إذا عدنا إلى تلمس مظاهر التجديد التي طرأت على قصيدة المديح في العصر العباسي فسوف نلحظ بعض المحاولات التي مست القصيدة في بنائها الشكلي، لكنها لم تغير في الطريقة الفنية العامة[2]، فبدلا من افتتاح القصائد العباسية بالبكاء على الأطلال وذكر النسيب وما إلى ذلك مما هو متعارف عليه عند الجاهليين، اتجه الشعراء إلى استهلال قصائدهم بوصف الخمر، والتعبير عن إقبالهم على ملذات الحياة التي أفرزها تلاقح الثقافات، وامتزاج الأجناس المختلفة داخل المجتمع العباسي .

أما شعر المديح فملامح تطوره تركزت أساسا في جنوح الشعراء إلى رقة الأوزان والألفاظ على السواء بخلاف ما كانت عليه في العصر الجاهلي والأموي من الجزالة

(1) يوسف خليف، في الشعر الأموي، دراسة في البيئات، ص : 91 .
(2) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص : 113 .

والفخامة وطول البحر الشعري، هذا فيما يخص الشكل، أما التطورات التي شهدتها مضامين قصيدة المديح في العصر العباسي، فقد غذاها ذلك الصراع الحزبي والمذهبي الذي ساد في ذلك الوقت، ولعلّ أهمها تحول شعر المديح من نطاق القبيلة إلى نطاق الحزب، ومن نطاق العاطفة الفردية إلى رحاب العقيدة، كما هو الحال في شعر الخوارج والشيعة[1]، إضافة إلى

ذلك جنح شعر المديح عند بعض الشعراء إلى المبالغة في رسم صفات الممدوح على النحو الذي نجده عند المتنبي في مدحه سيف الدولة حينما يقول[2] :

تَظَلُّ مُلُوْكُ الأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ تُفَارِقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهَا سُجَدَا

ولقد برز في هذه الفترة لون جديد من المديح، هو مديح الله عزّ وجل، وهذا اللون فرضته الحياة الاجتماعية التي تراجعت فيها القيم الخلقية والدينية، وطغى عليها البذخ والترف وشتى أنواع اللهو التي تتنافى مع الإسلام، فكان لا بد أن تكون ردة فعل إزاء هذه الوضعية، فبرز تيار من الشعراء الزهاد المتصوفة، يحيي القيم الإسلامية ويتغنى بها[3] .

وهكذا أدى ظهور الجماعات والفرق الإسلامية ذات الطابع الديني والسياسي إلى اصطباغ شعر المديح بالصبغة السياسية كما هو الحال بالنسبة للشعراء العلويين وشعراء البرامكة وشعراء الخليفة وغيرهم[4] .

وظل الشاعر العباسي – رغم تلك التطورات التي مست قصيدة المديح سواء أكان في الشكل أم المضمون – يتغنى في مديحه بالمعاني العربية والمثل الأخلاقية المعروفة منذ العصر الجاهلي، لكنه إلى جانب ذلك يستنبط معان طريفة في السماحة والحكمة والحلم والعزم والمروءة وشرف النفس، وعلو الهمة، ولذلك ظل شعر المديح يبث في الأمة التربية الخلقية، وكان الشعراء يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم، وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التي لا تصلح حياة أمة إلا بها، وبذلك كانوا قويا، صوتا يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم[5] .

---

(1) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص : 201 .
(2) أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح ناصف اليازجي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ج2، (د.ت)، ص : 180 .
(3) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص : 402 .
(4) م.ن، ص : 403 .
(5) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط6، 1966، ص : 160، 161.

ولقد كان لانقسام الدولة العباسية إلى دويلات وممالك، الأثر الكبير في شعر المديح فأضحى تجارة رابحة للشعراء، وأصبح الحكام يشترون المديح ويهبون من أجله، فاشتدّ التسابق بينهم في ذلك، فكثر المديح في كل قطر، وهب الشعراء يتنقلون من مكان إلى آخر خلف ممدوحيهم يروجون لدعواهم، فقد أحدق الأعداء بالممالك وأصبح لكل بلاط جيش، ولكل جيش مهمة، وللشاعر أن يحثّ الهمم وأن يشيد بنضال الملوك وصبرهم على القتال والجهاد[1] .

ونجد أن هذا التكالب على المنافع المادية نتج عنه الضعف والفتور في هذا اللون من الشعر « فغدا الشعراء يدورون في محيط ضيق من المعاني، وفي معجم مرسوم من الألفاظ، يدورون حوله فينتهون دائما من حيث يبدأون »[2] .

6- شعر المديح في الأندلس :

وبانتقالنا إلى شعر المديح في الأندلس لابد أن نتحدث ولو قليلا عن الأوضاع العامة السائدة آنذاك، إذ إن العرب المسلمين حكموا بلاد الأندلس أكثر من ثمانية قرون، فكانت لهم فيها دولة عظيمة، ومرت عليهم أحداث تاريخ طويلة، وتتابعت على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكمين، ولا شك في أن الحياة الأندلسية قد اتسمت بسمات خاصة أثرت في تكوين الشخصية الأندلسية بوجه عام، وفي تشكيل الحياة الأدبية بوجه خاص وأول هذه السمات :

- الطبيعة الجغرافية لبلاد الأندلس المنفردة في مناخها وفي أراضيها، فالأندلس « تربتها خصبة وأرضها مزهرة، وأشجارها مثمرة، وبها أنهار جارية وسفوح جبالها تغص بالزرع والثمار، وسهولها خضراء وقصورها بيضاء وحدائقها غناء، والجو فيها جميل، والخير فيها وفير »[3]، ولا عجب أن تكون الأندلس مزار الأدباء، وملهمة لكل الشعراء، حيث كان هؤلاء الشعراء يخرجون جماعات وأفراد يمتعون النفس بجمال الطبيعة، ثم يعبرون عما في أنفسهم[1] .

أما ثاني السمات فهي تكمن في طبيعة المجتمع الأندلسي الذي امتزجت فيه – بعد الفتح الإسلامي – عناصر وأجناس مختلفة، منها الجنس العربي الفاتح، والجنس البربري المشارك في الفتح بالإضافة إلى الموالي، أما الجزء الأكبر من السكان فهم المولدون وهم عنصر ناشئ من تزاوج العرب بالبربر أو العرب بالإسبانيات والصقالبة، زيادة على عناصر من أهل الذمة من نصارى أسبان ويهود، ولاشك أن هذا الامتزاج السكاني بين عناصر المجتمع الأندلسي أدى إلى نشوء نزعة عقلية جديدة، وصفات لم تكن تعرف عند العرب الخلص[2].

(1) سامي الدهان، المديح، ص : 30 .
(2) أحمد أبو حاقة، فن المديح وتطوره في الشعر العربي، ص : 288 .
(3) أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، مج4، 1968، ص : 32 .

أما إذا رجعنا إلى الحياة الفكرية والعلمية في الأندلس خلال الحكم العربي، فإننا نلحظ حركة فكرية وثقافية راقية بعيدة الأثر، فلم تمنع حياة اللهو والترف الأندلسيين من إنشاء المدن، وبناء القصور الفخمة، والحمامات والبرك، وإقامة الجسور وتشجيع الحركة الفكرية والعلمية، فظهر إلى الوجود علماء وأدباء وفقهاء .

ولا تختلف الحياة الأدبية عن الحياة الفكرية، فقد طبعت الحركة الأدبية إبان مراحل الحكم العربي بطابع التقليد لكل ما هو مشرقي، ومن أسباب هذه التبعية للمشارقة أن الأندلس « كانت بطيئة، على ما يظهر في تلقي الحياة العقلية في المشرق لكثرة ما كان فيها من فتن وخصومات، وأيضا فإن البيئة لم تكن صافية لكثرة ما فيها من عناصر البربر، وهم قوم ينحرفون عن الحضارة والثقافة »[3] .

وقد بلغ من ولع الأندلسيين بالمشارقة أن سموا كثيرا من شعرائهم بأسماء من شعراء المشرق، وصاغوا كتبهم على شاكلة الكتب المشرقية، فيقولون مثلا في الرصافي أنه ابن رومي الأندلس، وفي مروان بن عبد الرحمن ابن معتز الأندلس، وفي ابن خفاجة صنوبري الأندلس، وفي ابن زيدون بحتري الأندلس، وفي ابن دراج القسطلي متنبي الأندلس، وفي حمدة بنت زياد الشاعرة الأديبة خنساء العرب[4].

(1) محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، ط2، 1981، ص : 17 .
(2) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص : 131-136 .
(3) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط7، ص : 322 .
(4) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص : 160 .

ويرى أحمد أمين أن شعراء الأندلس « لم يفلحوا كثيرا في استقلالهم عن الشرق، وابتكارهم وتجديدهم، كما لم يفلحوا في ذلك اللغويون والنحويون والصرفيون ولذلك لو أغمضنا أعيننا وجهلنا قائل القصيدة، أهو شرقي أم أندلسي، لم نكد نحكم حكما صحيحا جازما على الشاعر أغربي هو أم شرقي، لعدم التمييز الواضح حتى عند الخبراء (...) ولو كانت شخصية الأندلسي واضحة في أهلها لصعب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر مشرقي »[1]

وعلى كل فإن إثبات التقليد عند الأندلسي لا يمكن ردّه « إلى تخاذل في إرادة الأندلسيين أو إلى انعدام قدرتهم على الإبداع وأصالتهم في الخلق؛ لأنها ترتبط بوضع تاريخي وعقلي معين فرض هذا التقليد فرضا، ولم يكن بد منه أو مفر، فسرعان ما تخلوا عن تقليدهم المشارقة في كثير من ضروب النظم عندما سمحت لهم الظروف بذلك ... »[2] .

أما جودت الركابي فقد نظر إلى الشعر الأندلسي نظرة متفحصة فلم يحاول إطلاق أحكام عشوائية عامة كما فعل سابقوه إنما رأى أن الشعر الأندلسي مرّ بأطوار ثلاثة :

- الطور الأول امتد من العصر الأموي حتى أوائل القرن الخامس الهجري ويمثل هذا الطور تقليدا لشعر المشارقة وكان من أهم شعرائه وأبرزهم ابن هانئ الأندلسي وابن دراج القسطلي .

- أما الطور الثاني فيمتد خلال القرن الخامس الهجري، وتميز بالوسطية والتأرجح بين التقليد والتجديد غير أن كفة التجديد هي التي غلبت في نهاية القرن، ويمثل هذه المرحلة ابن زيدون وابن عمار وغيرهم من شعراء ملوك الطوائف .

- أما الطور الثالث والأخير فيضم شعراء القرن السادس وما بعده، وفيه مال الشعراء إلى الجدة والابتكار في المعاني والأساليب، وتمثيل البيئة في الأشعار ويمثل هذه المرحلة ابن حمديس، وابن خفاجة وابن سهل وابن زمرك وغيرهم[3] .

ومن الطبعي أن تنعكس آثار هذه الأطوار على قصيدة المديح فتلونت بألوانه .

(1) أحمد أمين، ظهر الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، ج3، 1959، ص : 104، 105 .
(2) ميشال عاصي، الشعر والبيئة في الأندلس، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط1، 1970، ص : 59، 60 .
(3) جودت الركابي، الطبيعة في الشعر الأندلسي، مكتبة أطلس، دمشق، ط2، 1970، ص : 24، 25 .

وإذا ما حاولنا استطلاع أحوال فن المديح عند شعراء الأندلس، رأينا أنهم كإخوانهم المشارقة قد نظموا المدائح وأكثروا منها، إلى جانب تقليدهم في بناء قصيدة المديح، حيث كانوا هم أيضا يعنون بالاستهلال وحسن التخلص .

وربما حاولوا التجديد، فجعلوا مقدمات قصائدهم وصفا للخمر، أو وصفا للطبيعة كما وصفوا الناقة والفلاة، ووصفوا الخيل، ووقفوا على الأطلال .

فشعراء الأندلس في بناء قصيدة المديح يلتقون مع القدماء في تعدد موضوعاتها ويخالفونهم في نوعيتها إلى حد ما؛ لأن لكل زمان موضوعاته، التي بها يستطيع الشاعر أن يحوز الإعجاب والتقدير ويستميل ممدوحه للعطاء أو نيل الحظوة عنده[1] .

أما المعاني والأفكار التي تقوم عليها مدائح الأندلسيين تكاد تكون واحدة، فالتشبيهات والصور تكاد تتكرر، والصفات التي تطلق على الممدوح والمآثر التي تنسب إليه هي نفسها أو قريب منها، فهم يفضلون في ممدوحهم كونه شجاعا كريما، فارسا جوادا، حليما سمحا، ذا عراقة وأصالة، وذا منطق وقول، إلى ما هنالك من صفات عالية، وأخلاق نبيلة فاضلة[2] .

وشاعرنا الأعمى التطيلي – موضوع البحث – له في قصيدة المديح ما يشبه سنن الأولين سواء في طريقة البناء أم في المعاني والمضامين وهذا – ما سنكشف عنه لاحقا –

وقد تأثرت قصيدة المديح في عصر المرابطين بالحياة الاجتماعية والسياسية التي عاشتها الأندلس آنذاك تأثرا كبيرا، واستمدت مادتها ومقوماتها من واقعها وارتبطت – غالبا – بالسلطة السياسية المتمثلة في طبقة الحكام والأمراء، وعبرت عن هموم الإنسان ومشكلاته الخالدة التي يواجهها دوما في صراعه مع البيئة المادية من أجل العيش، وفي صراعه مع المجتمع طلبا للأمن والتقدير، كما صورت تساميه فوق كل ما يخنق دوافعه أو يهدر مساعيه أو يهدد كيانه المادي والمعنوي، وانطلق الشعراء يبثون أفكارهم ورؤاهم في مدائحهم راسمين مثالية الممدوح اجتماعيا وسياسيا ودينيا ومعبرين – في صراحة – عن حوائجهم وآمالهم وطموحاتهم في هذا الممدوح أو تاركين لصفاته تحمله على العطاء والبذل والحماية .

(1) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص : 187 .
(2) محمد مجيد السعيد، الشعر في ظل بني عبّاد، المكتبة الأندلسية، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط1، 1972، ص : 93 .

فقد كانت هناك دوافع دعت الشعراء إلى نظم شعر المديح والإكثار منه، فقد أخذ نسبة كبيرة في أشعارهم، وهو يمثل الموضوع الرئيسي لديوان الأعمى التطيلي.

وتأتي في مقدمة دواعي نظم المديح، اتخاذه سبيلا للرزق والعيش؛ حيث كانت طبيعة الحياة الاجتماعية تبيح للشعراء أن يجعلوا أشعارهم أبوابا يرتزق بها، وشاعرنا التطيلي عاش حياته يبيع شعره ويتكسب بواسطته، ودفعه إلى ذلك فقدانه لبصره، فقد عاش صراعا مريرا مع الأقدار التي حرمته من نعمة البصر، فراح يمدح الحكام والأمراء المرابطين، إلا أن هؤلاء كانوا زاهدين في الشعر منصرفين عنه إلى الجهاد، فخيبوا أمل التطيلي فيهم فهبّ إلى مدح شخصيات دينية واجتماعية، وجد فيها ما يشفي غليله وتعطشه إلى نيل العطايا والرتب[1] .

ومن دواعي شعر المديح كذلك إلى جانب التكسب، هو الإعجاب بشخصية الممدوح والقصد لإظهار فضائله، وهي في الغالب تجتمع في الممدوحين من ملوك ووزراء وعلماء وقادة ومصلحين، فتغنى بها الشعراء وتفننوا في إظهارها، فالمديح جاء في الأساس تقديرا للفضيلة، وذكرا للمحاسن، وتمجيدا للبطولات، وتغنيا بالمآثر العظام، والأعمى التطيلي رغم كونه شاعرا متكسبا إلا أننا نراه مرة في إحدى مدائحه يشير إلى قناعته ويفخر بنقاوة وجهه من المهانة والذلة .

ثَكَلْتَ إِنْ لَمْ تَكُنْ تُعْزَى القَنَاعَةُ لِي فَحَرُ وَجْهِي ثَوْبَ لَسْتُ أَخْلُقُهُ[2]

ونراه في موضع آخر يخاطب ممدوحه مشيرا بمرارة وألم إلى إهدار كرامته وإراقة ماء وجهه في سبيل التكسب بالشعر.

وَكَمْ نُطْفَةُ مِنْ مَاءِ وَجْهِي أَرَقْتُهَا بِوِدِيْ لَوْ أَنِّي أَرَقْتُ لَهَا دَمِيْ[3]

وبذلك يعطينا الأعمى التطيلي صورة لعمق الصراع النفسي الذي يعانيه والتمزق الذي

(1) منجد مصطفى بهجت، الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986، ص : 356 .

(2) أبي جعفر أحمد بن أبي هريرة المعروف بالأعمى التطيلي، الديوان، تح : إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص :237 .

(3) م.ن، ص : 174 .

يكابده من جرّاء مواقفه المتناقضة التي يشعر بأنها تفرغ في لعابه مرارة، وفي فؤاده ألما وحرقة، حتى ليهون عنده الموت[1] .

وعلى ذلك لا ينبغي النظر إلى قصيدة المديح – منذ الوهلة الأولى – أنها مجرد صفات تخلع على الممدوح – طالما رددها الشعراء – استجداء لعطائه أو رغبة في حلولهم منزلة أسمى لديه بقدر ما هي – في الغالب – تعبير عن موقف إنساني صريح مداره التوتر الحاصل في الحياة النفسية للشاعر، نتيجة الصراع من أجل العيش والبقاء وتحدي بواعث الهلاك والموت، مدفوعا بفعل إشباع حاجات قوية الصلة بذاته[2] .

وسنحاول في الفصل الأول – من هذه الدراسة – تناول تلك الموضوعات التي تعرض لها الشاعر في قصائده المدحية؛ إذ قسمناها إلى مديح سياسي ومديح ديني وآخر اجتماعي معتمدين في هذا التقسيم على شخصية الممدوح، فقد كثر ممدوحيه وتعددوا، منهم الحكام والأمراء والقادة والفرسان، ومنهم الأصدقاء والنساء والأعيان والوجهاء ومنهم القضاة والفقهاء، وكل من هؤلاء كان لهم التأثير في شخصية شاعرنا وشعره .

ولكن قبل الحديث عن موضوعات شعره، تعرضنا إلى عصره – المرابطين – ثم حياته وعرفنا بديوانه وذلك قصد توضيح الأثر الذي تركه العصر سواء على الشاعر أم في شعره.

(1) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط2، 1985، ص : 90 .
(2) أشرف محمود نجا، قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2003، ص : 23 .